المرأة السورية والثورة المضاعفة

خولة دنيا

عندما يبدأ القتال، تبتعد النساء إلى الخلف.

الخلف لا يعني اللامكان، فقد يعني المكان تماماً ولكنه المكان المخفي، المكان الأكثر أمناً، الأكثر حمايةً، والأكثر عملاً في أحيان كثيرة. هو المكان الأشبه بخلايا النحل، حيث تكوِّن النساء شبكتهن الخاصة بهن، بدأب وصبر واستمرار، لا يعيقهن المشهد العام وما يحمله من يأس، عن إكمال التفاصيل التي تعني الحياة يوماً بيوم وساعةً بعد ساعة.

عندما نزلنا لأول مرة في المظاهرات كانت مشاركة النساء محدودة، تراهن متجمعات في أماكن صغيرة على بعضهن البعض، يتم التعامل معهن في أحيانٍ كثيرةٍ بحماية مطلقة، حيث ترى شبكة من الأيدي المتقاطعة والمتشابكة لشباب غيورين يحاولون حماية مجموعة من النساء اللواتي يهتفن بهتافات الجميع، ورفض الجميع ومطالب الجميع. الخروج من هذه الدائرة المغلقة كان يحتاج لثورة أيضاً.

صراع المرأة منذ بداية الثورة كان واضح المعالم، فهي تريد التغيير، وتريد الكرامة وتريد الحرية. ولكن التعامل معها بقي كما هو، كعنصر أضعف يجب أن يغيب عن الصورة العامة لصراع الرجال بين بعضهم البعض، مالم يكن إدخالها من باب كسر العظم وإثبات الغلبة لطرف على آخر.

في أحيان كثيرة تمّ النظر إليهن كلون مختلف للثورة يجب أن يظهر بين حينٍ وآخر، وهذا انسحب على التعامل مع الأطفال كذلك، فتمَّ استغلال الهمجية الممارسة تجاههم وتجاههن لإثبات وجهات النظر لدى المتصارعين من الرجال. لكن كثيرات من النساء رفضن أن يكن في خلفية المشهد، فكانت لهن تظاهراتهن، كما كان لهن معتقلاتهن، وشهيداتهن. كانت لهن حكايتهن الخاصة، عن الموت، التعذيب، الاعتقال، الاختفاء، مواجهة النظام، كما مواجهة القوى الظلامية في المناطق التي وقعت تحت سيطرتها بعد تحررها من سطوة النظام.

قد تكون المعاناة الأفظع التي تعرضت لها النساء، هي استخدام العنف

تجاههن لأغراض سياسية، ومن بينها الاغتصاب الذي تم توثيقه في حالات الاقتحام الواسعة لبعض المناطق، فكان أداةً سياسية الغرض منها، إذلال الناس وإجبارهم على الخروج من تلك المناطق، من خلال إذلال النساء واغتصابهن.

لكن هذا كله لم يمنع النساء من العمل المستمر في مجالات كثيرة، حتى لو كان الثمن الاعتقال أو الموت.

في بداية الثورة كان هناك سعي لتعويض ما فات من البعد عن السياسة، فأقيم الكثير من التجمعات المدنية النسائية، حيث تم نقاش أمور تتعلق بالقوانين والدستور والحقوق، وحيث تم طرح مشاكل النساء، ومعوقات تقدّمهن، ولماذا يجب أن تشارك المرأة بالثورة في سوريا.

ولكن مع اشتداد الوضع سوءً، دخلت النساء في الهمّ اليومي المباشر بكل أشكاله وتبعاته، من الإغاثة إلى التمريض، إلى النزوح، إلى العمل في مجالات التعليم البديل، وورشات تمكين المرأة، والدعم النفسي. فكنّ بهذا المعنى الرافعة الحقيقية للمجتمعات الجديدة التي تشكلت بسبب النزوح واللجوء. وساعد في هذا الغياب الكبير للرجال بسبب الدخول في الحرب، أو بسبب الاعتقال أو الخوف من الظهور العلني.

فأصبح لدى النساء شبكات التواصل الخاصة بهن، كما شبكات التواصل بمشاركة الآخرين. لديهن جلسات نقاشهن، وفاعليتهن، وصوتهن الذي لا يمكن إنكاره.

صحيح أن النساء لم يتلقين الرصاص كما الرجال، ولكنهن قدّمن حصتهن من الدماء كما الرجال، كُنّ أمهات ثكالى، وأرامل متحملات، وبنات صابرات لشهداء يتساقطون في كل لحظة..

لكن هذا لم يتجلَّ للأسف على الصعيد السياسي، فلم تجنِ النساء الكثير من خلال مشاركاتهن الفاعلة والمستمرة، فمن جهة تعامل معهن النِظام، كمعارضة درجة ثانية، لا تخيف، ولكن يجب قمعها. ومن جهة أخرى تعاملت المعارضة معهن كذلك بنفس المنطق للأسف.

ويلاحظ هذا في نسب المشاركة في التجمعات التي أسستها المعارضة، حيث

كانت نسبة النساء المشاركات في كثير من الأحيان محددة سلفاً، وتم قبولها كنسبة مشاركة للمرأة كمرأة، وليس كمعارضة لها رأيها ووزنها ومشاركتها. ينسحب هذا على التكتلات السياسية كلها، من هيئة التنسيق، ثم المجلس الوطني، ثم الائتلاف، كما في المنبر الديمقراطي، أو لاحقاً القطب الديمقراطي. وعلى الأرض كذلك، نرى نفس المشكلة، رغم تماس ما تمَّ تشكيله مع الواقع المباشر، ومشاركة النساء فيه بكل قوتهن. فالمجالس المحلية التي تمَّ تشكيلها في المناطق المعارضة لم تقبل مشاركة النساء إلا بالنادر، ويتم إرجاع ذلك إلى الطابع المحافظ لتلك المناطق التي انبثقت فيها تلك المجالس.

في المجال العسكري لا يمكن الحديث عن الموضوع، رغم اللعب عليه من قبل جهتين: النظام الذي شُكّل جيش الدفاع الوطني من مواليه وشبيحته، وكان للنساء حصة فيه، حيث أظهرهن في أكثر من مناسبة باللباس العسكري والسلاح والتدريب الصارم. ولكن لم نراهن على جبهات القتال. وفي المعارضة كذلك فيما تم الاتفاق على تسميته (داعش) وعملياتها الانتحارية ومحاولتها إظهار بعض النساء راغبات بالاستشهاد، يتدربن لهذه الغاية، ويتم استخدامهن لتفتيش النساء في كثير من المناطق والمعابر.

إذن هي المرأة تدفع الثمن مرات ومرات، ويتم استغلالها مرات ومرات.

إن إردنا للثورة أن تكون للقضاء على التمييز ضد المرأة، فهو ما يجب أن نختبره في مراحل لاحقة في المستقبل، حين تهدأ الحرب، ويبدأ بناء الدولة. وهو ما يتطلب ثمناً أكبر، على نسائنا أن يعين أنهن سيدفعنه الآن ولاحقاً، وعليهن أن يكن مستعدات لهذه التضحيات.

في فترات مختلفة وعت النساء السوريات أهمية استقلالهن وضرورة تواجدهن في كيانات تطالب بحقوقهن، فظهرت تجمعات عدة للنساء، غير أن هذه التجمعات على أهميتها بقيت بعيدة نسبياً عن المشاركة الشعبية، وقد يكون السبب في هذا، أن هذه التجمعات جذبت النساء الأكثر اهتماماً والأكثر مشاركة سابقاً في الهم النسوي، وأكثر وعياً لقضايا النساء وكيفية المطالبة بحقوقهن. بالاضافة إلى عدم وجود حواضن شعبية تتمتع بالاستقرار والأمان النسبي للعمل ضمنها.

لا يمكن التعويل على هذه التشكيلات بمعزل عمّا يجري على الأرض، كما

أطفال مصر

دعاء

لا عدمتكم الشجاعة ولا الكرامة ولا البصيرة ولا الصبر
لا عدمتكم الحرية ولا الإباء ولا عزة النفس والأوطان
وأنتم تحفرون اليوم اسم مصر على جبهة التاريخ بحروف الخلود

وأنتم تكتبون المستقبل للعرب ولعشاق الحرية جميعا بحبر الروح وأطياف وتسيرون إليه على طريق موحشة ولكنها آهلة بأهل الأمل، وعرة لكنها معبدة بالتضحيات وعرائس الحلم. هذا الجزء الواضح الشفيف من المشهد المدهش الذي يأتينا مطعّما بالعرق والدم عبر شاشات العالم حاملا صوت الحق ونداءاته الندية الحرة، محمولا على أكف وأكتاف الشرفاء و الشعب المصري المجيد. أما المشهد الغامض الملتبس فهو الكثير من القراءات المرتبكة لما يحيط بهذا المشهد من احتمالات لا تتحمل انتصار الشعب المصري وترى أن مثل هذا النصر تهديد لمصالحها التي لا تستقيم مع إقامة دولة العدل والحق والكرامة والقانون والنظام، وترى في استقلال الأوطان بداية انكسار شوكتها وانحسار هيمنتها. ولهذا فليس لي ولنا على امتداد العالم العربي الذي يتابع بشغف وشجن أو بإشفاق ورجاء ما يجري على الساحة المصرية من بطولات شعبية وحملات مسعورة مضادة، إلا أن نثق ببطولات مصر وسحرها الحلال العابر للقارات ونثق في حق الشعوب لخوض تجربة وإن بدت مغامرة غامضة غير السير في هوى أرباب السوابق السياسية المخيّبة والمخزية.

فواجب الفهم والاستيعاب وتحري التحليل الموضوعي والاستشراف هو أقل ما يمكن أن نسهم بتقديمه للشعب المصري وللغد العربي والإسلامي القريب والبعيد الذي أراهن أنه لن يبقى مع انطلاقة العقد الثاني من الألفية الميلادية الثالثة وبعد ثورة الشباب في تونس ومصر على نفس منخفض ذلك المسار المنكسر المتعرج. أما اتجاه المسار الجديد أو اتجاهات المسارات الجديدة فهذا هو تحدينا الأكبر الذي لن نستطيع مواجهته بخبراتنا السابقة في التسليم بسياسة الأمر الواقع ولا بتجربتنا التي طالما كانت عرضة للخيبات وللتخلي السريع عن هدف عنيد وبعيد

فـي آن. لذا فلابـد للفكر والرأي من التفاعل الخلاق مـع الواقع والعكس، في ضوء عدم الحياد عن الأساسـيات المبدئية لحياة إنسـانية شـريفة وكريمة. لست أدّعي ولا لأحد أن يدّعي امتلاك فصل الخطاب في هذه اللحظات الدقيقة بين مرحلة التشـظي ومرحلـة الاستشـراف ولذلـك فإنني أكتفي هنا بشـرف طرح الأسـئلة احتراما لطراوة جرحي وحرية عقولنا واستجابة لداعي التفكير في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة.

الأربعاء 9/ 2/ 2011

اليوم الثاني بعد الجراحة:

بالـكاد رفعت أهدابـي لأتلمس ببصري معالم الهضبة أو السـاحل الملقى عليه جسدي، عل شارة تدلني في أي مكان من كمين الأمكنة تركتني أو وجدتني. هل أنا بولاية ميرلاند بمدينة بلتيمور في جون

شراسة الساعات الطوووويلة البطيئة التي قضيتها على كرسي جلسة الاستشفاء مقيدة بقضبان من صلب وحديد، تحك جمجمتي طاقية من مسحوق الزجاج لجليد يفـور بمعدل خمسـة درجـات تحت الصفـر. فما ينفثـه ذلك الأنبـوب الأفعوي من زعـاف كحلـي مخضر في فوهـة الجرح حالـة لا تشـبه العنف الجسـدي للكي ولا تمـزّق الأحشـاء عند المخاض ولا عسـر الانسـلاخ الـذي يمر به الأطفـال للتحول من فراشـات ونحول وأزهار إلى مواطنين صالحين في الأوطان المطبقة. إن جلسـة العـلاج الكيميـاوي حالة جافـة جارفة متعجرفة من السـقام اللئيم قـد لا يقاربها إلا ضرب الأعناق بمعاول الكلام أو بطعنة غدر.

ابتهالاتي في سمهرير النهار وبياض الليل

«لا إلـه إلا أنـت سـبحانك إنـي كنـت مـن الظالمين يا حـي يا قيـوم برحمتك استغيث رب أن مسني الضر وأنت أرحم الراحمين».

اللهـم إنـي أمتك ابنة عبدك وابنـة أمتك ناصيتي بيدك مـاض في حكمك عدل في قضاؤك أسـألك بكل أسـم هو لك أنزلته في كتابك أو علّمته أحدا من خلقك أو اسـتأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القـرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وذهاب حزني وجلاء همي وغمي».

اللهم إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي بل إنني معتزة بنعمة المرض.

حاولت بالاستعاذة بالله وأسمائه الحسنى وبالاستعانة بآيات من كتاب الله المحكم بصوت الشيخ أحمد العجمي الشجي عليّ أحرّر روحي وجسدي من كل أسباب السبات ومن الآلام التي ما برحت تلوي حبال رقبتي وتشبك كل شريان من شرياني الدقيقة وأوردتي في أسلاك كهربائية عارية مباشرة.

فجر الجمعة 4/ 11/ 2011

الكيد لبعد المنال بطول الأمل

إن لم يكن لي أن أكون حاضرة في أي من ميادين التحرير و ساحات التغيير، فإنه لا يليق في تقديري بتواريخ تمردي العذري وبأشواقي المعتقة الطاعنة في عمر العشق الوطني أن أغيب عن سماوات الشعر، أو على الأقل ألا أحضر في مجال التحليل السياسي والاجتماعي لهذه الشلالات البشرية المنطلقة في الوطن العربي بروح فروسية خلف راية الحرية. غير أن «بُعد المنال» لا ينازله إلا ما هو أطول من عمر الإنسان وليس ذلك «لعمري» إلا الأمل.

الاستشفاء بمحو الحبر

بعد يوم طويل آخر لعبت فيه رحى الوجع بعظامي وسلسلة ظهري وحولت أطرافي إلى ما يشبه تراب الرياض بما جعلني في ذروة عذابي أزهو بما في تكويني من زعفران الأرض التي لا هوى إلا هواها، كنت أتطلع إلى لحظة سلام واحدة أبحث فيها عن نفسي بين نثار المواد الأسيدية المستعرة في أعصابي من مشط قدمي إلى بصيلات حواجبي وشعر رأسي. ولكن ما لم يكن في الحسبان أن أجد سلطان النوم يقف لي بالمرصاد يلوح بعصاه في وجهي، فهل يحق لي أن أغمض عيوني فيما الشعب الليبي يستميت بين مخالب الجوارح الخارجية وبين حراب الطاغية في أن يضيف صفحة جديدة إلى سفر الحرية العربية التي رمى شراراتها الأولى البوعزيزي في عروش الخراب؟. من يستطيع أن يستسلم لملمس الوسادة وإن هدمه السهاد بينما دوار اللؤلؤة يسوى بالأرض وتخلط به أوراق حسابات أقدار منطقة الخليج، وميدان التحرير حامل بأجنة التوقعات فيما يرتفع ضغطنا وينخفض تارة

حسب درجة توتر وانفراج أحلام الشعب اليمني في ساحة التغيير، وأخرى حسب مقياس ريختر للكارثة الإنسانية والنووية في اليابان، وكان هذا العام «عام فوران التنور» على عدد من الجبهات لوجستيا وسياسيا.

«لا نامت أعين الجبناء» صهلت جملة خالد بن الوليد في دمي على أبواب درعا بأصوات أبطالها بعد أربعين عام والشعب السوري مثلما في «ضيعة تشرين» للشاعر محمد الماغوط، ليس في نور ليصحو وليس من متسع لأكثر من واحد لينام. وسط هذا الزحام الذي لا يرحم العزل إلا من العلاج الكيمياوي، لم يكن لي إلا أن استحي من قرائي وعشاق مفاتيحي وأخجل مني لو أني سمحت لنفسي بعد ذلك العناء المضني الذي اضطرني للانسحاب عدة أسابيع أن أخلد للنوم. لم يتطلب الأمر إلا أن أتخذ قرارا صغيرا شجاعا بأن أقاوم رشاوي النعاس بين جلسات العلاج فاكف عن التثاؤب و أشق عصا الطاعة على الميتة الصغرى التي تلوح أمامي أو ربما في مخيلتي ليس إلا، لأعود إلى الاستشفاء بالكتابة لمقاومة هذا الزائر الخبيث وإخراجه بإرادة الله إلى غير رجعة.

لا يمكن التعويل على تشكيلات لا تضم الفسيفساء السوري ومكوناته، وإلا فكيف سيتم تغيير الوعي الجمعي النسوي السوري؟

قد تكون الخطوة الأهم هي المطالبة والتأكيد على وجود المرأة في مراكز صنع القرار، وخاصة في التشكيلات المعارضة التي ظهرت، وفرض نسبة مشاركة للمرأة لا تقل عن 30٪ في هذه التشكيلات، وعدم حصر دور النساء في قضايا تعتبر مجالهن الحيوي، أي قضايا المرأة والطفولة، بل فرض وجودهن في القضايا المصيرية المتعلقة بمستقبل البلد ودستوره وقوانينه. رغم ما نسمع من قول أن الوقت الحالي ليس لمثل هذه التفاصيل، وأن الهم الأول هو التحول الديمقراطي والبدء ببناء الدولة.

غير أن غياب المرأة عن تحديد مصير ومستقبل البلد، سيؤدي تالياً لغيابها عن حقوقها عند وضع الدساتير والقوانين.

إذن هو صراع تدفع فيه نساؤنا ثمناً كبيراً اليوم، وثمناً أكبر سيدفعنه تالياً. نحن نراهن على عودة النساء للاهتمام بكل ما يمس حياتهن ومستقبلهن ومستقبل أطفالهن، كما نراهن على قدرة النساء على المشاركة رغم اختلاف الخلفيات العقائدية والدينية والمناطقية، لا يهم إن كان وجهها مغطى، أو محجب أو سافر. فاللحظة تفرض نفسها عليها وعلى محيطها لتقوم بأدوارها المتعددة، ويجب أن لا تقبل بدور الدرجة الثانية أبداً.

وعلى الرغم من أن صوت الرصاص والموت والدمار هو ما يعلو اليوم، إلا أن المراهنة لليوم والمستقبل سيكون بأن المرأة هي صوت العقل، كما صوت البناء والمستقبل.

وعندما تزداد صرخات الثأر، ستكون هي صوت الحكمة. هكذا كانت أبداً وهكذا ستكون اليوم وغداً.

النساء اللواتي عرفن طعم الحرية، وعرفن ثمنها، وقدّمن كل ما يملكن من أجلها، لا يمكن أن يعدن إلى الوراء، فهن جزء من التغيير الحاصل، كما هنّ جزء من المستقبل الذي يحتاج كل مكونات المجتمع للوصول إليه، فالثورة كانت على كثير من التابوات التسلطية والمجتمعية والطبقية والتمييزية. والنساء وعين هذا ولن

يقبلن العودة إلى بيوتهن خاليات الوفاض.

وحتى ننتصر وينتصرن وينتصروا... ما زال السوريون والسوريات يدفعون الثمن غالياً، دماً ودماراً وفقداناً ونزوحاً ولجوءاً ووجعاً يومياً مستمراً بالنزيف.